ملاحظات حول تعليم الصبيان في مدينة دمشق في العهد العثماني

٩٢٢-١٣٣٧هـ / ١٥١٦-١٩١٨ م

مهند مبيضين*

ملخـص

تسلط هذه الدراسة الضوء على تعليم الصبيان في مدينة دمشق خلال العهد العثماني، وتحاول التعريف بأبرز مكاتب تعليم الصبيان التي عرفتها مدينة دمشق خلال فترة الدراسة ورصدها في المصادر التاريخية، إضافة إلى بيان معارف مؤدبي الأطفال وتكوينهم الثقافي، وموارد دخلهم وطرائق التعليم التي كانوا يتبعونها، والمعارف التي كانوا يقدمونها، بالإضافة إلى تقديم نماذج ممثلة لسير المؤدبين وتراجمهم.

الكلمات الدالة: تعليم الصبيان، الحياة التعليمية، دمشق، العهد العثماني.

المقدمة

بين العصرين المملوكي والعثماني استمرت الكتابة في مصنفات تربية الأطفال وتأديبهم، ونذكر من مصنفات تلك الحقبة ابن حجر الهيتمي (٩٠٩-٩٧٤هـ/١٥٠٣ – ١٥٦٦ م) الذي وضع وهو في مكة مصنفه الشهير"تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال"(١)، ويبين الهيتمي في مؤلفه هذا ما يحتاج إليه مؤدبو الأطفال من المعارف المتصلة بالتربية، ويعرض لأهم المبادئ التربوية التي توجه عمل المؤدبين في دور العلم(٢).

وفي دمشق، ألف أبي المكارم نجم الدين محمد بن محمد الغزي العامري الدمشقي (ت:١٠٦١هـ/١٦٥١م) مصنفه "حسن التنبه لما ورد في التشبه"، الذي عرض في جزء يسير منه لما يجب أن يؤدب عليه الأطفال، كما أنه عرض لصفات المؤدب(٣)، ويتضح في حديثه أنه سار على نهج من سبقه ممن ألفوا في مجال تأديب الأطفال، وهو يقتبس من الأثر والسنة وينقل عن الماوردي في كتابه أدب الدين والدنيا(٤) وينقل شواهد تاريخية مختلفة.

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث ٢٠١١/٦/٢٧، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠١٢/٥/١٠.

(١) الهيتمي، أحمد بن محمد (ت:٩٧٤هـ/١٥٦٦م) **تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال**، بيروت، دار ابن كثير، 1987م.

(٢) حول رسالة ابن حجر، انظر: سليمان حسين المزين، "***قراءة تربوية في أدب الأطفال للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي بن حجر الهيتمي الأنصاري***، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، غزة، يناير2006 ، ص٢٣٢-٢٧٦.

(٣) الغزي، نجم الدين أبو المكارم محمد بن محمد (ت:١٠٦١هـ/١٦٥١م) **حسن التنبه لما ورد في التشبه**، مخطوط في المكتبة الظاهرية، رقم ٩٠٣٠، ق ٣٦٧-٣٦٨.

(٤) الغزي، حسن التنبه، ق ٣٦٧.

وقد سار الغزي في مصنفه على نهج كتب التراث التي كانت تعرض إلى تعليم الأطفال، وما يجب عليهم تعلمه أو اجتنابه من سلوك، وما تستوجبه من اهتمام، فبين أن الصبي أول ما يغلب عليه "شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه، فيؤمر أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ويأكل مما يليه، ولا يبادر الى الطعام قبل غير، ولا يحدق إليه ولا إلى من يأكل، وأن يتأنى في الأكل ويحبب إليه الإيثار بالطعام وعدم الاهتمام به..."(٥).

وطالب الغزي ضرورة الاهتمام بنظافة الطفل"...في الثوب والبدن والمجلس"(٦)، كما طالب بأن "...يحبب إليه الثياب البيض والثياب الخشنة دون ملونات والحرير، وإن كان ذلك مباحاً، ويعرف أن ذلك يلبسه النساء والمخنثون ليعتاد الرجولة، وأما الصبية فلا بأس بلباسها شيئاً من ذلك"، ودعا الغزي إلى عدم معاشرة الصبي للصبيان الذين تعودوا "...النعم والترفه، ولبس الثياب الفاخرة..."(٧).

أما مجال التعليم، فذكر الغزي أنه ينبغي على المؤدب تعليم الصبيان القرآن والكتابة ودعا إلى تعريفه بأحاديث "..الخيار والأكابر ويسمعه حكايات الصالحين ليتعلم حب الصالحين فيرغب في الاقتداء بهم، ويحذر عن الأخبار التي فيها ذكر العشق ومدح الخمر، وذكر الهزل والمجون؛ فإن ذلك يزرع في قلبه نبذ الفساد... ويحسن إليه سبيل العلم"(٨).

ويهتم الغزي بالتوجيه بضرورة العناية بتربية الأطفال وبناء شخصياتهم، ويشير إلى أهمية تقويم السلوك عندهم من غير اللجوء إلى العقاب، وتعزيز الجوانب الإيجابية في سلوكهم فيقول: "..وإذا ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود ينبغي أن يحمد به ويستحسن منه ويكرم عليه، فإن خالف دون مرة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يكشف به خصومة إذا سره الصبي واستخفى به، فإن عاد إليه مرة أخرى عوقب عليه سراً وهول عليه، فإن خالف دون مرة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يكشف به خصومة... فإن عاد إليه مرة أخرى عوقب عليه، ولا يكثر عليه الملامة فيهون عليه سماعها وركوب القبايح والإفراط في ذلك.."(٩).

ولا يغفل الغزي عن دور الأم في تربية صبيها فيطالب إليها أن "..تزجره على القبايح وتحذره أن يطلع أبوه عليها..."(١٠)، أما عن علاقة الصبي بالمؤدب فيدعو الغزي إلى الأم تحذير الصبي من أن "يطلع مؤدبه على قبائحه، ويعظم مقام المؤدب عنده، وينهى عن كثرة الكلام، بل ينبغي أن يتعلم السكوت والأدب في حضور أبيه، ويدفع إلى هذا الأدب مع أبيه ومع غيره.."(١١)، ولا تقف واجبات الأم عند الغزي عند ذلك، بل يطالب منها أن "..تعلمه الأدب في الخطاب والجواب وحسن

---

(٥) الغزي، حسن التنبه، ق ٣٦٧.

(٦) المصدر نفسه، ق٣٦٧.

(٧) المصدر نفسه، ق٣٦٧.

(٨) المصدر نفسه، ق٣٦٧.

(٩) المصدر نفسه، ق٣٦٧.

(١٠) المصدر نفسه، ق٣٦٧.

(١١) المصدر نفسه، ق٣٦٧.

المعاشرة وأن لا يتكلم في أمر مع وجود أكبر منه"[١٢]، ويطلب من الأب تعليم الصبي بأن"..لا يتكلم في مجاس الرجال، بل يسكت ولا يبادرهم بالكلام، ويمنع من النوم عند وقوع الفجر وفي وقت الضحى وبعد العصر.."[١٣].

وعن شخصية المؤدب يتحدث الغزي عن طبيعة العلاقة بين المؤدب والصبيان فيقول:"..وأخوف ما يخاف من المؤدب والمعلم ما يعهده من والده من المودة والشفقة والتنزل الى عقله بخلاف المؤدب والمعلم...". لذلك، يشدد على صفات المؤدب التي يجب مراعتها من قبل الأب فيقول:"...وليختر الإنسان لولاده معلماً دينياً عفيفاً صالحاً ملازماً للصلاة في أول وقتها، وقوراً لا يمازح الصبيان ولا يجادلهم بغير التعليم، فإنهم يقتدون بأفعاله أكثر مما يستفيدون من أقواله.."[١٤].

ويتابع الغزي ملاحظاته في العادات والواجبات التي يجب على الصبي تعلمها، ويبدو من خلال ما يورده أن الصبي يستقل بذاته في سن البلوغ فـ"..متى راهق أو بلغ استقل بنفسه في التأب بالآداب الشرعية، وطلب العلم على الشيوخ المرضية، ووضع كل شيء في محله، ولا يدع تعاهده الآب والولي، وإذا بلغ، فعلى وليه أن يعرفه وعليه أن يتعرف أنه قد صار مكلفاً أي مخاطباً بالأحكام الشرعية موعوداً بالثواب على طاعة، والعقاب على مخالفة، وفي هذه الحالة سيكون شاباً يحسن منه التشبه بالكهول والشيوخ الكمل ويبلغ أشده ويستوفي شبابه ببلوغ ثمان وعشرين سنة..."[١٥].

ومع أن ما يقدمه الغزي ينهل من الخبرة الثقافية الإسلامية مجال تأديب الأطفال[١٦]، فيمكن القول إن تأديب الصبيان وتعليمهم في دمشق، استمر في أدبياته خلال العصر العثماني بذات التقاليد الموروثة من العصر المملوكي، ولعل الغزي ينفرد بين أقرانه من علماء دمشق في العصر العثماني ممن اهتموا بالكتابة في هذا المجال التربوي، وقد كان دافعه إلى تأليف كتابه "حسن التنبه لما ورد في التشبه"، كما يرى عبد الكريم رافق، بيان الحكم في التأخر الذي أصاب الأمة العربية في زمانه، فتنبه إلى أهمية التذكير بالتشبه في السلف الصالح لتجاوز وضع الأمة السيئ في وقت مبكر من الحكم العثماني[١٧].

---

(١٢)الغزي، حسن التنبه، ق٣٦٧.

(١٣) المصدر نفسه، ق٣٦٧

(١٤) المصدر نفسه، ق٣٦٨.

(١٥) المصدر نفسه، ق٣٦٨.

(١٦) يورد الغزي في هذا الجانب رسالة الخليفة هارون الرشيد إلى مؤدب أولاده بقوله:" وقال الشافعي مؤدب أولاد الرشيد وقد التمس منه أن يوصيه فأقبل عليه، فقال له: ليكن أول ما تبدأ به إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه..". الغزي، حسن التنبه، ق٣٦٨.

(١٧) عبد الكريم رافق، **دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث**، مكتبة نوبل، ط١، دمشق، ٢٠٠٢م، ص٣٦١.

أولاً: أماكن تأديب الصبيان وتعليمهم

يمكن التفريق بين أربعة مرافق كانت تشهد تعليم الصبيان، وهي المكاتب الملحقة بالمدارس والمساجد، وأحيانا يرد ذكر لنشاط تعليمي للصبيان باسم المسجد أو الجامع دون المكتب(١٨)، وهناك المكاتب الخاصة التي أقامها بعض الشيوخ في بيوتهم أو في بعض حارات المدينة، كما تذكر مصادر الحقبة العثمانية في دمشق إلى اختصاص بعض الشيوخ بتعلم أبناء السلاطين والخلفاء والوزراء وقادة الجند وتأديبهم في منازلهم(١٩)، وقد أغدق هؤلاء على المؤدبين العطايا الجزيلة، وهناك النوع الرابع المتمثل في نشاط المرأة الذي نهضت به في دار "الخجة"(٢٠)، وهذا النوع غالبا ما تندر الأخبار عنه في المصادر التاريخية.

أ- التدرس في المساجد والمدارس

عرفت بعض الجوامع والمدارس بدورها في تدريس الصبيان، وقد أشارت كتب التراجم إلى عدد من الشيوخ والمؤدبين الذين تولوا تعليم الصبيان في مكاتب محددة أو في حلقات تعليم ارتبطت ببعض المساجد أو المدارس، ومنها:

- **الجامع الأموي**

درس الأطفال في أمكنة مختلفة من الجامع الأموي، ومن الذين درسوا بها عبد القادر بن علي بن محمد بن أبي بكر الشهير بابن النوار الفيومي الشافعي (ت:٩٢٩هـ/١٥٢٢م). ويذكر الغزي أنه كان "مقيماً بمشهد زين العابدين بالجامع الأموي بدمشق.. وكان صافياً صالحاً ملازماً للمشهد يقرئ الأطفال أحياناً.."(٢١)، أما محمد بن شعبان الشيخ العلاّمة شرف الدين ابن سلطان الحرافيش بدمشق (ت:٩٢٩هـ/١٥٢٢م) ففي آخر عمره "لازم المشهد الشرقي بالجامع الأموي لإقراء **صغار الطلبة**، وكان في ابتداء أمره شاهداً تجاه باب المؤيدية"(٢٢).

(١٨) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت:١٠٦١هـ/١٦٥١م)، **لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر**، تحقيق محمود الشيخ،٢ج، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨١م، ج ١، ص٢٥٢.

(١٩) المحبي، محمد أمين (ت:١١١١هـ/١٦٩٩م). **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ٤ج، دار صادر بدون تاريخ، بيروت، ج١، ص ٢٤٢- ٢٤٣.

(٢٠) أشار القاسمي في قاموس الصناعات، إلى أن دور للمرأة الدمشقية "معلمة الأولاد"، وكلمة "خواجة" لفظ فارسي الأصل بمعنى المعلم أو الكاتب أو التاجر أو السيد، واستخدمت في التركية، وفي العصور الإسلامية استعملت المفردة كلقب عام، وهي بالنسبة للمرأة في دمشق تلفظ خوجة وخجا وتعني المعلمة. انظر: ياسين عبد الرحيم، **موسوعة العامية الدمشقية**، ٤ج، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٣م، ج٢، ص ٥١١؛ محمد سعيد القاسمي، **قاموس الصناعات الشامية**، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٨م، ص ٤٠٨؛ منير كيال، **ياشام في التراث الشعبي**، دمشق، ١٩٨٤م، ص٦١. وانظر عن الخواجة في: حسن الباشا، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٧٩. وانظر: E.I.2". Khawadja".. .VOL.IV.P.907

(٢١) الغزي، لطف السمر، ج ١، ص٢٥٢.

(٢٢) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت:١٠٦١هـ/١٦٥١م)، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، ٣ج، دار الكتب

- **مكتب مسجد ناصر الدين**

ذكره الغزي في ترجمته للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الدنابي الحنبلي(ت:٩١٥هـ/١٥٠٩م) وحدد مكانه بقوله: ".. ثم كان يقريء الأطفال في مكتب مسجد ناصر الدين غربي مدرسة أبي عمر.."[٢٣].

- **مكتب المدرسة الحاجبية[٢٤]**

أشار إليه نجم الدين الغزي في ترجمته للشيخ أحمد البقاعي الشافعي (ت:٩٤٠هـ/١٥٣٣م) الشهير بالضرير وحدده بقوله: "**وصار يقرئ الأطفال بمكتب الحاجبية بصالحية**"[٢٥]. وأشار ابن كنّان الصالحي(ت:١١٥٣هـ/١٧٤٠م) إلى أن الشيخ محمد بن عيسى الديري (ت:١٠٨٧هـ/١٦٧٦م) كان يعلم به أولاد بعض الشيوخ[٢٦].

- **مكتب المدرسة القيمرية الجوانية**

حدد نجم الدين الغزي مكانه في "القيمرية الجوانية"[٢٧]، وكان الشيخ محمد الظني (ت:٩٤٤هـ/١٥٣٧م) إلى جانب تدريسه الأطفال في هذا المكتب قد أعطي وظيفة مشيخة القراءة في المدرسة الشامية البرانية[٢٨].

- **مكتب المدرسة الشاذبكية[٢٩]**

العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج١، ص ٣٢٠.

(٢٣) الغزي، الكواكب، ج١، ص٢٢٥.

(٢٤) بناها الأمير محمد بن مبارك شاه الدمشقي، وكانت تقع بقرب المدرسة العمرية بالصالحية، وسيمت بالحاجبية لأن الأمير محمد تقلد وظيفة الحجابة في دمشق، انظر: ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت: ٩٥٣ هـ/١٥٤٦م)، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد احمد دهمان،٣ج، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٤٩م، ج١، ص١٠٠.

(٢٥) الغزي، الكواكب، ج ٢، ص ١١٨.

(٢٦) ابن كنّان، محمد بن عيسى الصالحي (ت:١١٥٣هـ/١٧٤٠م) **المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق،١٩٤٧م، ص٤٢.

(٢٧) بنيت هذه المدرسة سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م علي يد أوقفها الأمير أبو الحسن يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمري ت:٦٥٤هـ/١٢٥٦م وتقع في منطقة العمارة الجوانية في منطقة تعرف بالقبابية العتيقة عند المدخل الشرقي لزقاق السبع طوالع. وسميت بالجوانية تمييزا لها عن المدرسة القيمرية الكبرى في سوق الحريميين؛ أكرم حسن العلبي، **خطط دمشق**، ط١، دار الطباع، دمشق، ١٩٩٥م، ص١٥٥، ١٥٦.

(٢٨) الغزي؛ الكواكب، ج ٢، ص٧١. والمدرسة الشامية البرانية إحدى مدارس الشافعية، بنيت سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م بنتها خاتون ست الشام ابنة نجم الدين أيوب. النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت:٩٢٧هـ/١٥٢٠م). **الدارس في تاريخ المدارس**، ط١، تحقيق جعفر الحسيني،٢ج، المجمع العلمي العربي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٤٨م؛ ج١، ص٢٧٧؛ العلبي، خطط، ص١٢٤-١٢٥.

(٢٩) ويقال لها الشابكلية أيضا، بناها الأمير سيف الدين شاذي بيك، نائب الشام سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وهي تقع في حي القنوات وما زالت المدرسة قائمة لليوم. انظر: ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت: ٩٥٣ هـ/١٥٤٦م)

ذكره نجم الدين الغزي في ترجمته للشيخ موسى شرف الدين "البيت لبدي"[٣٠] الصالحي الحنبلي (٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م) وقال عنه: "مؤدب الأطفال بالشاذبكية بمحلة القنوات خارج دمشق"[٣١].

- مكتب المدرسة المجاهدية[٣٢]

يقع داخل باب الفراديس، وأشار إليه نجم الدين الغزي (ت:١٠٦١هـ/١٦٥١م) في معرض ترجمته للشيخ أحمد بن عبد القادر بن التينة الدمشقي الشافعي (ت:٩٧٩هـ/١٥٧١م)[٣٣].

- مكتب جامع السنانية

شيده والي دمشق يوسف بن عبد ا سنان باشا عام ٩٩٩هـ/١٥٩٠م، وقد بنى مجموعة عمرانية من المرافق خارج باب الجابية[٣٤] تشمل الجامع والحمام والسوق والمكتب[٣٥]، وهو مكتب لتعليم القرآن، وذكر المرادي، صاحب "سلك الدرر" (ت:١٢٠٦هـ/١٧٩١م) أن محمداً بن زين الدين الكفيري (ت:١١٣٣هـ/١٧٢٠م) درس فيه على يد الشيخ محمد بن محمد الدكاني[٣٦].

- مكتب المدرسة المرادية

ورد ذكر هذا المكتب في "خلاصة الأثر" للمحبي وذلك في معرض ترجمة لعلي بن سعد بن علوان المكتبي المعروف بالأسود الفقيه الشافعي الدمشقي (ت:١٠٧٤هـ/١٦٦٣م)، فقد أشار

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام)، تحقيق محمد مصطفى، ٢ج، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٩٦٢-١٩٦٤م، ج١، ص٥٤.

(٣٠) نسبة إلى قرية بيت لبد، التي تقع غرب نابلس وشرق مدينة طولكرم، ويحيط بها كل من سفارين غرباً وقوصين شرقاً ورامين شمالاً وكل من كفرقدوم وكور جنوباً، وترتفع عن مستوى سطح البحر ٤٣٥ م وتقع على خط طول٣٥ ودائرة عرض ٣٢. انظر: يوسف عبيد، **دليل المواقع والمدن والقرى والقبائل البدوية في فلسطين**، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٥م، ص١٣.

(٣١) الغزي، الكواكب، ج٢، ص٢٥٣.

(٣٢) أوقف هذه المدرسة وبناها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس الكردي سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، والمدرسة تعرف اليوم بجامع السادات، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص٤٥٥؛ الغزي، الكواكب، ج٣، ص١١٩.

(٣٣) الغزي، الكواكب، ج٣، ص ١١٩.

(٣٤) بناه الرومان أواخر القرن الثاني للميلاد، يقع غرب سور دمشق عند نهاية السوق الطويل وسوق مدحت باشا مواجها في خط مستقيم لباب شرقي. انظر: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت:٥٧١هـ/١١٧٦م)، **تاريخ مدينة دمشق، خطط دمشق**، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط٢، منشورات المعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأدني، دمشق، ٢٠٠٨م، ص١٨٧.

(٣٥) انظر: العلموي، عبد الباسط بن موسى (ت:٩٨١هـ/١٥٧٣م)، **مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس**. تحقيق صلاح الدين المنجد، مديرية الآثار القديمة العامة، دمشق، ١٩٤٧، ص٢٤٤، الغزي، لطف، ج٢، ص٧١٢؛ المحبي، خلاصة، ج٢، ص٢١٤.

(٣٦) المرادي، سلك، ج٣، ص٤٢.

المحبي إلى أن الشيخ ابن علوان، كان "يقرئ الأطفال في مكتب المرادية"[٣٧]، وهناك مدرستان تحملان اسم المرادية، وهما: المرادية البرانية والمرادية الجوانية، وكلاهما أنشأهما الشيخ مراد المرادي النقشبندي العام ١١٠٨هـ/١٦٩٦م. لكن المدرسة التي تحوي مسجدا هي المدرسة المرادية البرانية[٣٨].

- مكتب المدرسة الخاتونية

توجد مدرستان في دمشق تحملان هذا الاسم[٣٩]، والمصادر لم تحدد أي مدرسة يتبع لها هذا المكتب، وقد ذكر ابن كنّان أن الشيخ محمد البصروي (ت:١١٢١هـ/١٧٠٩م) عمل فيه مؤدباً للأطفال[٤٠].

- مكتب المدرسة الظاهرية

أنشأ المدرسة الظاهرية الملك الظاهر بيبرس عام (ت:٦٧٦هـ/١٢٧٧م)، وكان فيها مكتب لتعليم الأطفال قراءة القرآن والنحو والخط، وقد درس فيه الشيخ علي بن حسين الشافعي المصري نزيل دمشق (ت:١١٦٣هـ/١٧٤٩م)[٤١].

- **مكتب مسجد سيدي عطية**

أشار السجل الشرعي إليه في معرض وثيقة تخص تعيين الحاج سعودي بن عبد المعطي في الحصة من وظيفة البوابة في مسجد سيدي عطية بمعلوم قدره في كل يوم درهم عثماني، وفي وظيفة تعليم الأطفال بالوقف المذكور بعملوم قدره في كل يوم درهمان عثمانيان وفي وظيفة الكتابة بالوقف المذكور بمعلوم قدره كل يوم درهم.." وهو ما تبينه الوثيقة الآتية[٤٢].

---

(٣٧) المحبي، خلاصة، ج٣، ص ١٦٠.

(٣٨) المرادي، محمد خليل بن علي (ت:١٢٠٦هـ/١٧٩١م) **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ط٣، دار البشائر، ٤ج، بيروت، ١٩٨٨،ج٣ص٢٢٨،ج٤، ص١١٥،١٣٠؛ العلبي، خطط، ص٢٦٦.

(٣٩) انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص٥٠٧؛ محمد كرد علي، **خطط الشام**، ٦ج، مكتبة النهضة، دمشق، ١٩٨٣م، ج٦، ص٩٠؛ العلبي، **خطط**، ص١٨٧.

(٤٠) ابن كنّان، محمد بن عيسى الصالحي (ت:١١٥٣هـ/١٧٤٠م). **الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومية**، تحقيق أكرم العلبي، دار الطباع، دمشق، ط١، ١٩٩٤م، ص١٥١.

(٤١) المرادي، سلك، ج٣، ص١٢١٤.

(٤٢) سجل دمشق، الشرعي، وثيقة، ٢٥٨، ص٢٢٩، ٢٥ شوال ١١٦٦هـ/٢٥ أغسطس ١٧٥٣. والدرهم هنا غير القرش.

وثيقة تعيين الحاج تغلب بن سعودي بوظيفة تعليم الأطفال

ب- **التدريس في المكاتب الخاصة**

تشير الوثائق الشرعية وكتب التراجم إلى مكاتب خاصة لتعليم الصبيان، وهي منفصلة عن الجوامع والمساجد والمدارس، ومنها ما كان قريبا من مدرسة أو جامع، وارتبط بعظها باسم منشئها، ومنها ما كانت تؤدي أكثر من دور داخل مجتمعها، فبعضها كان يمارس صاحبه فيه أكثر من مهمة أو وظيفة، وقد أمكن حصر عدة مكاتب، ومنها:

- **مكتب عزالدين**

لا يعرف لمن ينسب هذا المكتب، لكن الغزي أشار إليه في ترجمته للشيخ حسن بن علي بدر الدين الطبراني (ت:٩٤٩هـ/١٥٤٣م) نزيل دمشق، وحدد الغزي مكانه بأنه يقع بجانب مدرسة شيخ الإسلام أبي عمر الكائنة بسفح جبل قاسيون فقال: "تسبب بقراءة الأطفال في مكتب عز الدين غربي المدرسة المذكورة.."[٤٣].

- **مكتب الشيخ علي**

وهو من أقدم المكاتب التي يشير إليها السجل الشرعي، وكان يقع في حي الشاغور البراني، وجاء ذكره في وثيقة بيع "..وإلى الغرب منه مكتب الشيخ علي معلم الصبيان" ولم يرد له ذكر في المصادر الأخرى[٤٤].

- **مكتب الشيخ الأحدب**

أشار المحبي في ترجمة الشيخ إبراهيم الزبداني المعروف بالأحدب(ت:١٠١٠هـ/١٦٠١م)

(٤٣) الغزي، الكواكب، ج ٢، ص١٣٥.
(٤٤) سجل دمشق، الشرعي، رقم ١٨، وثيقة ١٢٢، ص٢٣٢، ١٢ رجب ١١٠١هـ/٢٢ إبريل ١٦٩٠م.

إلى انه كان "مقيما بالمدرسة العمرية[٤٥] بصالحية دمشق وصار معلما للأطفال في مكتب قبالة المدرسة العمرية"[٤٦].

- مكتب أبو القاسم السوسي

أشار إليه المحبي في ترجمته للشيخ أبي القاسم بن محمد المغربي السوسي المالكي نزيل دمشق ومفتي المالكية (ت:١٠٣٨هـ/١٦٢٨م). ولا يحدد المحبي موقع المكتب الذي كان "**يعلم فيه الأطفال**"[٤٧] ولم يبين ما إذا كان الشيخ السوسي هو الذي شيده.

- مكتب الشيخ برهان

لا تتوافر معلومات عنه، في كتب الخطط ولا في كتب التراجم، أو اليوميات، وبذلك يبقى تاريخ إنشائه مجهولا، بيد أن السجل الشرعي يشير إليه، يعده أحد أمكنة تعليم الصبيان، ويحدده السجل "في حارة القيمرية"[٤٨].

- مكتب قلعة دمشق

لم تصل إلينا معلومات كافية عن إنشاء هذا المكتب، إلا أن السجل الشرعي أشار إلى أن مشيخته كانت بيد الشيخ "بكر بن الشيخ حسن"[٤٩].

- مكتب إلياس كتخدا[٥٠]

أوقف هذا المكتب كتخدا والي دمشق إلياس، الذي لم تذكر مصادر الدراسة أي معلومات عن شخصيته، سوى ما يرد في السجل الشرعي، حيث عين محمد بن إبراهيم في وظيفة مشيخة المكتب بتاريخ ٣ محرم ١١١٩هـ/ ٦ إبريل١٧٠٧م[٥١].

---

(٤٥) تنسب إلى أبي عمر محمد بن احمد بن قدامة المقدسي، وهي من مدارس الحنابلة، وقد بنيت في حدود العام 555هـ/١١٦٠م. النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٠٤.

(٤٦) المحبي، خلاصة، ج١، ص٣٦.

(٤٧) المصدر نفسه، ج١، ١٤٥.

(٤٨) سجل دمشق الشرعي رقم ١٨، وثيقة ١٢٣، ص ٧٨، ١٢ رجب ١١٠٠هـ/٢ مايو ١٦٩٨م "**تعيين علي بن محمد دياب، في نصف وظيفة الإعادة بمكتب الشيخ برهان.**."

(٤٩) سجل دمشق الشرعي ٢٩، وثيقة ٢٤، ص٩، ٢٨ رجب ١١١٩هـ/ ٢٤ أكتوبر ١٧٠٧م.

(٥٠) كلمة فارسية الأصل تعني سيد البيت، وقد كان بمثابة مدير لأعمال الوالي، كما استطاع بعض العاملين في هذا المنصب أن يتوصلوا في ما بعد في إلى منصب المتسلم، انظر: أحمد البديري الحلاق **(ت: بعد ١١٧٥هـ/١٧٦٢م). حوادث دمشق اليومية** (١١٥٤-١١٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م)، ط١، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٩م، ص١٧٦، ١١٧، ١٥٨، ١٨٣.

(٥١) سجل دمشق ٢٩، وثيقة ٣٣٣، ص١٥٤، ٣ محرم ١١١٩هـ/ ٦ إبريل ١٧٠٧ م.

- مكتب الشيخ يونس

أشار السجل الشرعي إليه وحدده في "محلة القنوات ظاهر دمشق" وكان الشيخ يونس المصري (ت:١١٢٠هـ/١٧٠٨م) نزيل دمشق هو الذي شيده ودرس به(٥٢).

- مكتب سوق ساروجا

يورده السجل الشرعي ويحدد موقعه في محلة الورد**(٥٣)**، وقد "قرر لإبراهيم بن علي فيه بوظيفة تعليم الصبيان بأجر قدره درهمان عن كل يوم"(٥٤).

- المكتب الغربي

يقع هذا المكتب غرب سراي دمشق حسب ما يشير السجل الشرعي، وقد درس فيه محمد وعبد ا ابنا إبراهيم بن عبد ا العجلوني(٥٥).

- مكتب الشيخ قاسم الفقيه

يقع في حي الشاغور الجواني(٥٦) وتشير المصادر إلى أن الأديب اللغوي الكاتب حسن بن أحمد المغربل (ت: بعد ١١٤٩هـ/١٧٣٧م) هو الذي شيده، حيث كان يعمل بنسخ الكتب وتعليم الخط

---

(٥٢) عالما فقيها محدثا، درس تحت قبة النسر بالجامع الأموي، وكان مشاركا في الأحداث العامة، وأخذ عنه علماء دمشق، انظر:المحبي، خلاصة، ج ١، ص ٧٥ ".. ودرس بالجامع الأموي بين العشائين في الشفاء للقاضي عياض، وكان يبدي أبحاثا مقبولة، واستنابه آخرا الشيخ يونس المصري في درس قبة النسر المشهور في الشام لما توجه إلى الروم فدرس شهرين.." ابن كنّان، الحوادث، ص٣٠٧، المرداي، سلك ج١،ص٢٥١، ويشير السجل إلى أن المكتب كان قائما في القرن التاسع عشر، فيرد ذكرا لأحد العاملين به "ومنهم محمد العامل في مكتب الشيخ يونس المصري –بوظيفة الإعادة- بمحلة القنوات..."، انظر: سجل دمشق الشرعي، ٥٨٦، حجة ١٢٣، ص٢٤٢، ١٣ رجب ١٢٨٣هـ/٢١ نوفمبر ١٨٦٨م.

(٥٣) محلة الورد إحدى محلات منطقة سوق ساروجة وفيها جامع الورد، وحي ساروجة منسوب إلى أحد قادة الجند في دمشق، وهو الأمير ساروجه المتوفى سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤٢ م وصار للحي مكانة مرموقة في العصر العثماني إذ عرفت بإسطنبول الصغيرة بسبب سكنى كبار الموظفين العثمانيين فيه، انظر: ابن الحمصي أحمد بن محمد (ت:٩٣٤هـ/١٥٢٧م)، **حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران**، تحقيق عبد العزيز حرفوش، ط١، ، دمشق، دار النفائس، ٢٠٠٠م. ص ٤٦، ٣١٠، ٢١٧، ٥٥٥؛ العلبي، خطط**،** ص٤٤١.

(٥٤) سجل دمشق الشرعي ٦١، وثيقة ٤٠٣، ص١٨٩، ١١ ذي القعدة ١١٤٢هـ/٢٨ أيار ١٧٣٠م.

(٥٥) سجل دمشق الشرعي ٧١، وثيقة ٤٥ ص ١٥، ١٢ شوال ١١٤٥هـ/ ٢٨ مارس ١٧٣٣م.

(٥٦) الشاغور هو أحد أحياء دمشق القديمة التي تقع داخل القسم الجنوبي للمدنية القديمة وخارج سورها، وعرف القسم الذي يقع خارجها باسم الشاغور البراني، ويعتقد أن كلمة "الشاغور" آرامية الأصل ومن الباحثين من يردها للأصل الكنعاني انظر: قتيبة الشهابي؛ أحمد إيبش، **معالم دمشق التاريخية**، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ص٣٦٢. وانظر: يوسف جميل نعيسة، **مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦-١٢٥٦هـ/١٧٧١-١٨٤٠م،** دمشق، **١٩٨٦م،** دار طلاس، ط١، ج١، ص ٧٩. وانظر عن حارات دمشق كذلك: زاك، دوروتيه**. تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية،** المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ط١، ترجمة قاسم طوير، مراجعة نزيه الكواكبي، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٧٨.

المضبوط، ويروي المرادي أن انتقاله إلى المكتب كان بطلب أهل محلة الشاغور، "لرغبتهم فيه في المهمات الفقهية وعقد الأنكحة وكتابة الضمانات والصكوك وتعليم الأطفال"(٥٧).

- مكتب الشيخ اسعد المجاد

مؤسسه الشيخ أسعد المجاد (توفي: ١١٨٠هـ/١٧٦٦م) والذي كان يدرس في المدرسة "الجمالية بصالحية دمشق وأنتفع به جماعة من الطلبة.."(٥٨) وقد أشار السجل الشرعي بعد فترة متأخرة إلى تعيين خليل بن حسن النجار في وظيفة تعليم الصبيان بأجر"... قدره في كل يوم درهم عثماني في مكتب الشيخ أسعد المجاد في حي الصالحية.."(٥٩).

- مكتب الشيخ بلبل

أشار إليه السجل الشرعي وحدده في "منطقة الصالحية قرب المدرسة الضيائية"(٦٠) وقد أسسه الشيخ بلبل أفندي بن عاشر أفندي الواعظ في جامع بني أمية ولم تشر إليه المصادر التاريخية برغم أن البيطار ترجم له فوصف بـ"الزهد وكثرة الخشوع"(٦١).

- دار الخوجة ودور المرأة

يمكن القول إنها المكان الذي كان يرسل إليه العامة أبناءهم، في حين كان أبناء الأغنياء والميسورين يذهبون إلى المدارس والمكاتب الملحقة بها لتأديبهم، وتظل المعلومات في المصادر عن دور المرأة أو الخوجة في التعليم في العصر العثماني شحيحة مقارنة مع العصر المملوكي. لكن، وبحسب ما تشير إليه الدراسات المعنية بالتراث الدمشقي، فإن الطفل كان يذهب في سن السادسة إلى دار الخوجة أو الخجاية، وهناك تقوم السيدة بتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة(٦٢).

ويشير منير كيال إلى أن الدمشقيين كانوا إذا بلغ الطفل سن السادسة يشرعون في البحث عمن يعلمه القراءة والكتابة "...وقد يرسلونه إلى الخوجة وهي تتولى تعليم الصبية الصغار والفتيات الصغيرات مبادئ القراءة والكتابة...وكانت الخوجة تتخذ من إيوان منزلها في الصيف مقرا

(٥٧) المرادي، سلك، ج٢، ص٢٠.
(٥٨) المصدر نفسه، ج١ ص١٤٥.
(٥٩) سجل دمشق الشرعي، ٤١٣، وثيقة ٦٧، ص ٨٣، ١٤ رمضان ١٢٥٦هـ/٩ نوفمبر ١٨٤٠.
(٦٠) سجل دمشق الشرعي ٣٤٨ وثيقة ٣٢١، ص ٢٣٢، ٢١ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ/٢ أغسطس ١٨٣٩م
(٦١) قال الشيخ عبد الرزاق البيطار في ترجمته:" الشيخ بلبل أفندي بن عاشر أفندي الواعظ في جامع بني أمية في دمشق المحمية عالم عامل، وزاهد فاضل، كثير البكاء والخشوع، كأنه على العبادة والتقوى مجبول ومطبوع، وكان له في الوعظ أسلوب حسن، وإلقاء مستحسن، تتأثر منه القلوب، تكاد من تأثرها أن تذوب. توفي رحمه ا سنة إحدى وستين ومائتين وألف في اليوم الخامس عشر من المحرم الحرام" عبد الرزاق البيطار (ت:١٣٣٥هـ/١٩١٦م)، **حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر**، ط ١، تحقيق محمد بهجت البيطار، دمشق ١٩٦٤م، ج١، ص١٧٣.
(٦٢) منير كيال، يا شام، في التراث الشعبي الدمشقي، دمشق، ١٩٨٤م، ص٦١.

تستقبل فيه روادها من الفتيات والصبية الصغار"[٦٣].

وخلال فصل الشتاء تتخذ الخوجة إحدى غرف منزلها المتسعة بديلا للأيوان وتفرشها بالطراريح والبسط أو السجاد وجلد الخراف، وكانت تقسم الأطفال إلى مجموعات وتخص كل مجموعة بعريف أو عريفة[٦٤].

ثانيا: مناهج الدراسة

تقدم غالبية مكاتب تأديب الصبيان معارف أولية بسيطة للأطفال، ومنها مبادئ القراءة وحروف الهجاء-التهجئة- وتعلم الحساب وتلاوة القرآن والخط، إلى جانب بعض الرسائل النحوية، ونجد في ترجمة الشيخ علي بن حسين الشافعي المصري نزيل دمشق (ت:١١٦٣هـ/١٧٤٩م) أنه كان يدرس الأطفال كل يوم "عشرة أحزاب"[٦٥].

يبدو العمل الجزء الأساسي من عمل المؤدبين هو تعليم الأطفال القراءة[٦٦] إلى جانب تعليمهم القرآن، كما أولى المؤدبون تعليم الصبيان علم النحو والخط عناية واضحة، وتخصصت بعض المكاتب في تعليم الخط "المضبوط"[٦٧]، ومنها مكتب المدرسة الظاهرية الذي كان يتعلم فيه الأطفال "النحو والخط"[٦٨]، ويبدو أن التلميذ إذا ما نَعِم بلقب حافظ للقرآن بأكمله فإنه يكون قد بلغ مطمحاً مرموقاً بين الطلبة[٦٩].

وتشير المعلومات التي تعود إلى الحقبة العثمانية المتأخرة في دمشق، إلى أن استخدام "الصبرة" لتهجئة الحروف، كان أمرا شائعا في مكاتب تعليم الأطفال[٧٠]. إذ يبدأ التعليم غالبا بختام الأطفال

---

(٦٣) كيال، يا شام، ص ٦٢.

(٦٤) المرجع نفسه، ص٦٢.

(٦٥) المرادي، سلك، ج٢، ص١١٤. والتحزيب للقرآن أن يجعلَ على أجزاء متسقة تقرأ ورداً متصلاً في مدة معلومة، ثم إن كان التحزيب في مدة تصلُ إلى الشهر فإن القارئ يحتاج إلى فصل بعض السور كسورة البقرة فحينئذ يفصلُ للحاجة إلى ذلك، على أن يكون تحزيب السورة بالوقوف عند المعاني التامة المستوفاة فيجعل سورة البقرة حزبين وهكذا. وذهب بعض السلف إلى تحزيب القرآن على أسباعٍ لا تُراعي خواتيم السور، كما روى ابن أبي داود عن قتادة أنه جعل القرآن أسباعاً ينتهي السبع الأول عند الآية ٧٦ من النساء، والثاني عند الآية ٣٦ من الأنفال.. إلخ ما رواه ابن أبي داود. انظر. السجستاني، أبي داواد سليمان بن الأشعث (ت:275هـ/888م) **كتاب المصاحف**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج١، ص ٤٦٦.

(٦٦) انظر: سجل دمشق الشرعي ١٣٩، وثيقة ٢٢٩، ص١٥٨، ٣ ذو القعدة ١١٦٦هـ/١ سبتمبر ١٧٥٣م "تعيين الحاج تغلب بن سعودي بتعليم الأطفال بأربعة دراهم".

(٦٧) المرادي، سلك، ج٢، ص٢٠.

(٦٨) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢١٤.

(٦٩) سجل دمشق الشرعي ١٢٩، وثيقة ٢١٩، ص١٨٨، ١٤ شوال ١١٦٣هـ/ ١٦ سبتمبر ١٧٥٠م؛ هينز، هالم. ***أصول المدرسة في الإسلام***، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، السنة ٣، ع٢، آذار – نيسان ١٩٨١م، ص٢٣؛ عبد العزيز الدوري، ***المؤسسات الحكومية***، في: ر. ب سرجنت (محرر) المدينة الإسلامية، ترجمة أحمد ثعلب اليونسكو ١٩٨٣م، ص٨٣.

(٧٠) كيال، يا شام، ص٧٢.

لجزء عم، ثم بلوغ سورة تبارك ثم سورة ياسين حتى بلوغ منتصف القرآن، ويكون بدء القراءة بتحفيظ الصبي من "الصبرة"، وهي كراس صغير من ورق أصفر هش، والتي كان يطبع قسم منها بحروف التهجي منفردة واضحة بأشكالها المتعددة، من حيث وقوعها بأول ووسط وآخر الكلمة، ومنها ما طبعت فيها الحروف متصلة بالحروف الصوتية، ومنا ما طبعت فيها حروف الهجاء منفردة في صفحة خاصة ومنفردة مع حركة واحدة[٧١] ويرسم بها الحرف مشكولاً بالحراكات المختلفة، كما تفرد صفحة منها أو أكثر لتهجية حرف منون مشدد وحركة، وتهجية من حرف منون وحركتين، وتهجية من حرف منون مشدد وحركتين، وتأتي بعد ذلك الكلمات المركبة من حرفين،[٧٢] كما توضحها الصورة الآتية:

صفحة من كراس الصبرة كما أوردها
منير كيال في كتابه يا شام

وبالرغم من الوظيفة التعليمية لمكتب تأديب الأطفال، فإنها مثلت حاجة اجتماعية لسكان بعض الأحياء الذين كانوا يطالبون بوجود مؤدب أو معلم للأطفال "لرغبتهم فيه في المهمات الفقهية وعقد الأنكحة وكتابة الضمانات والصكوك وتعليم الأطفال"[٧٣]. والمكتب هو مكتب لتعليم القرآن[٧٤].

ثالثا: نظام التعليم في المكاتب

عند مطالعة السير والتراجم الخاصة بموضوع الدراسة، نجد عدة مسميات وألقاب خاصة بالعاملين في حقل تعليم الصبيان، وهو ما يطرح أسئلة عدة ومنها: هل تعكس الألقاب مستوى

(٧١) كيال، يا شام، ص٧٢.
(٧٢) المرجع نفسه، ص٧٢.
(٧٣) المرادي، سلك، ج٢، ص٢٠.
(٧٤) انظر: العلموي، مختصر، ص٢٤٤؛ الغزي، نجم، لطف، ج٢، ص٧١٢؛ المحبي، خلاصة، ج٢، ص٢١٤.

المعرفة عند العاملين في تأديب الصبيان؟ وهل تبرز لغة التراجم ذلك التفاوت؟ أم أن الألقاب تحدد الجهود والأدوار فقط؟ كما تبرز الأسئلة هنا عن معدال الأجور التي كان يتقاضاها المؤدبون، وهذا ما نحاول الاجابة عنه آتياً.

أ. المسميات والألقاب

لا تتوافر معلومات واضحة عن نظام التعليم في مكاتب تأديب الأطفال، لكن من خلال السير التي تم رصدها يتبين لدينا أن هناك مسميات عدة في هذا المجال، فهناك مقرئ الأطفال والمؤدب والمعلم، الذين لم يعملوا في مكان واحد، وإنما جاء التعريف بهم في المصادر بتلك الصفات والألقاب التي يبدو أنها تعكس الجهد الذي يقوم به أصحابها، فالمقرئ اقتصر دوره على تعليم قراءة القرآن(٧٥).

أما المؤدب الذي عرف "بشيخ الكتاب فهو من يلقن الأطفال حروف الهجاء مفردها ومركبها وأشكالها ثم يعلمهم قراءة القرآن والكتابة.."(٧٦)، وطلب إليه العناية بتنشئة الأطفال والتركيز على تعليمهم الآداب العامة، من غير أن يفرق بينهم "وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة في التربية والتعليم، فقيرهم وغنيهم"(٧٧)، وظهر أن معارف المعلم كانت أوسع(٧٨)؛ إذ اشترط به أن يكون فقيها صالحا، وغالبا ما كان له نشاط تعليمي أو ثقافي إلى جانب تعليم الصبيان(٧٩).

ويبدو أن المكتب كان يقوم أساساً على جهد فردي يقوم به الشيخ، ويساعده طالب أو طالبين يقومان بواجب العرافة لمساعدة الشيخ في متابعة الطلبة، ليس كحال المدرسين في المدارس التي وجدت فيها مجموعة من الوظائف وعدد من مساعدي المدرس أو المعيدين، بيد أن تسمية المصادر "**صغار الطلبة أو الصبيان**" تشير إلى أن السن لم يكن مشروطا بعمر محدد للسماح بدخول المكاتب، وجل ما تذكره المصادر مرتبط بالتحاق الطلبة بالمدارس بسن يتراوح بين الثامنة والثالثة عشرة(٨٠)، وبهذا يكون قد أمضى عامين أو ثلاثة في التعلم لدى شيوخ المكاتب أو في دار الخجاية.

وبخلاف المدارس فإننا لا نملك معلومات واضحة عن عطلة مكاتب مؤدبي الأطفال، ويبدو أنها كانت بيد كل شيخ حسب وقته، ويظهر انعدام وجود نظام خاص بتدريس المؤدبين للأطفال من حيث وقت الدراسة والعطلة، وهناك من المدرسين والمؤدبين من كان يحدد وقتا للتدريس في يوم محدد من الأسبوع مثل يوم الجمعة(٨١)، لكن اللافت في إحدى الحالات التي لا يمكن تعميمها عدم

(٧٥) الغزي، الكواكب، ج٢، ص١١٨.
(٧٦) القاسيمي، قاموس، ص ٤٠٥.
(٧٧) المصدر نفسه، ص ٤٠٥.
(٧٨) الغزي، الكواكب، ج٢، ص ٧٠.
(٧٩) المحبي، خلاصة، ج١ ص٣٦.
(٨٠) المرادي، سلك، ج٢، ص٢٣، ج١، ص٢٥٩.
(٨١) الغزي، الكواكب، ج١، ص ٢٨٢.

تكرار المجموعة نفسها من الأطفال، بحيث يلتقي الشيخ "كان يجتمع عليه صغار الطلبة في كل جمعة جماعة"(٨٢).

ب- أجور مؤدبي الصبيان ومعلميهم

تتفاوت معدلات الأجور من مدرس لآخر، ومن مؤدب لمعلم، فالشيخ بكر بن الشيخ حسن كان يدرس بمكتبه "بأجر قدره ستة دراهم في كل يوم"(٨٣). وقرر القاضي "لإبراهيم بن علي بوظيفة تعليم الصبيان أجرة درهمين عن كل يوم"(٨٤).

وهناك من تقاضى أجوره من الأوقاف، وجمع أكثر من وظيفة في ذات المكان، كما هو حال الحاج سعودي بن عبد المعطي الذي عين في حصة من وظيفة البوابة في مسجد سيدي عطية "بمعلوم قدره في كل يوم درهم عثماني، وفي وظيفة تعليم الأطفال بالوقف المذكور بمعلوم قدره في كل يوم درهمان عثمانيان، وفي وظيفة الكتابة بالوقف المذكور بمعلوم قدره كل يوم درهم.."(٨٥).

وفي بعض مصادر التراجم هناك إشارة إلى أن بعض الشيوخ كانوا يعزفون عن تقاضي أي أجر مقابل تعليمهم الأطفال، فيذكر نجم الدين الغزي في ترجمة أحدهم أنه كان "يقرئ الأطفال إحساناً ولم يتناول على التعليم شيئاً"(٨٦)

وعمل بعض مؤدبي الصبيان ومعلميهم في الحرف، كما حال الشيخ علي ابن الخباز البغدادي العاتكي الدمشقي (ت:٩١١هـ/١٥٠٥م) الذي كان يقرئ الأطفال وجاء في ترجمته أنه "كان يأكل من كسب يمينه ويتسبب بنسج القطن.."(٨٧) ومنهم من كان يصنع "التروس العجيبة الثمينة ويعلم الأطفال أحياناً قراءة القرآن والكتابة.."(٨٨)، وفي سيرة أحد المؤدبين أنه عمل ناسخا للكتب و"كتب كتباً كثيرة بخطه منها الجامع الصغير للسيوطي(٨٩)، كتب منه إحدى وعشرين نسخة، واشتهر فيها... واعتنى بها ولازمها حتى حفظ الكتاب عن ظهر قلب، ومحصل القول فيه أنه كان بركة من بركات عصره"(٩٠).

ويشير القاسمي في قاموس الصناعات الشامية، إلى أن أهالي دمشق اعتادوا أن يقدموا لشيوخ

---

(٨٢) الغزي، الكواكب، ج١، ص٢٨٢.
(٨٣) سجل دمشق الشرعي ٢٩، حجة ٢٤، ص٩، ٢٨ رجب ١١١٩هـ/٢٥ أكتوبر ١٧٠٧م.
(٨٤) سجل دمشق الشرعي ٦١، حجة ٤٠٣، ص١٨٩، ١١ ذي القعدة ١١٤٢هـ/ ٢٨ أيار ١٧٣٠م.
(٨٥) سجل دمشق الشرعي، وثيقة، ٢٥٨، ص٢٢٩، ٢٥ شوال ١١٦٦هـ/٢٥ أغسطس ١٧٥٣م.
(٨٦) الغزي، الكواكب، ج٢، ص ٩٢.
(٨٧) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٢.
(٨٨) المصدر نفسه، ج٣، ص ٦٦.
(٨٩) لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ/١٥٠٥م) الجامع الصغير **في أحاديث البشير النذير**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.
(٩٠) المحبي، خلاصة، ج٣، ص ١٠.

الكتاب أجرة أسبوعية، عرفت "بالخميسية يتقاضونها يوم الخميس، من خمس وعشرين بارة إلى قرش على كل ولد.." ومنهم من كان يأخذ أجرته شهريا، وقدرها" ستة قروش وصاعداً" وكلما تقدم الطفل في حفظ سور القرآن تقدم للشيخ مرتبات "تسمى حلاوانا"[(٩١)].

رابعاً: سير المؤدبين وتكوينهم الثقافي

تكشف كتب التراجم التي تعود إلى الفترة العثمانية عن جملة معطيات تتعلق بتراجم مؤدبي الأطفال، وهي تساعد على تحليل وتوضيح البيئة الثقافية التي ينتمي إليها المؤدبون، من حيث مستواهم الثقافي ودرجة الانتفاع بهم، وعلاقتهم مع المجتمع، بالإضافة إلى معرفة أصولهم والبيئات الثقافية التي وفدوا منها إلى دمشق.

أ- المستوى الثقافي

تطالعنا كتب التراجم بصور مختلفة لمؤدبي الأطفال في دمشق، وهذه الصور تعكس مكونهم الثقافي، الذي أثر في رسم مجمل الصورة العامة لسيرهم، فإبراهيم بن أحمد القصيري (ت:٩٣٣هـ/١٥٢٦م)الحلبي الأصل نزيل دمشق، الذي لا نعرف إن كان مارس تأديب الأطفال في دمشق، إلا أنه عمل فيه بحلب، وقد تلقى تعليماً جيداً في صغره، ثم درس في حلب، وأخذه والده بعدها ليتعلم على علماء دمشق و"سمع الحديث بها وبالقاهرة.."[(٩٢)]، ويلحظ في سيرته أنه "لم يهتم بعلم الحديث حسب، وإنما اشتغل في القاهرة بالعلوم العقلية والنقلية، إلى جانب عمله في تأديب الأطفال.

ومن المؤدبين من اقترنت صفتهم –المؤدب- بمكون ثقافي جمع بين الاهتمام بعلوم العربية والفقه وعلم الفرائض[(٩٣)] والحساب، وهذا ما تمثله سيرة الشيخ إبراهيم الأحدب الزبداني الأصل (ت بعد:١٠١٠هـ/١٦٠١م). فبالإضافة إلى ما تميز به من علوم الحساب والفرائض، وأخذه من شيوخ في علم الحديث، فقد كان على صلة وثيقة بعلماء عصره، ولم يقف عند هذا الدور حين صار "معلما للأطفال في مكتب قبالة المدرسة العمرية"[(٩٤)]، ففي مكان آخر من خطط دمشق الدينية نجده يلازم في " جامع التكية السليمية[(٩٥)] ويقرئ الناس في الفنون التي انتفع بها "خلق كثير"،

---

(٩١) القاسمي، قلموس، ص٤٠٨.

(٩٢) الغزي، الكواكب، ج١، ص ١٠٦.

(٩٣) هو علم بقواعد وجزئيات وأحوال تركة الميت وميراثه من حيث قسمها على مستحقيها، انظر: حاجي خليفة، مصطفى بن عبد ا الرومي (ت:١٠٦٠هـ/١٦٥٦م) **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ٦ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٢، ص١٢٤٤.

(٩٤) عرفت سابقا هامش ٤٥.

(٩٥) بناها السلطان سليمان بن سليم العام ٩٦٠هـ/١٥٥٢م في سفح جبل قاسيون في منطقة الصالحية على سفوح جبل قاسيون مقابل جامع الشيخ محيي الدين، وهذه التكية ما زالت محافظة على بنائها القديم، وما زالت تمارس دورها في إطعام الفقراء والمساكين وعابري السبيل. أما التكية السليمانية فمكانها محل القصر الأبلق الشهير الذي بناه السلطان

ويتابع المحبي سيرته في باب الأدب، فيذكر أنه رأى "في بعض المجاميع...أنه كان ينظم الشعر."(٩٦)

أما يحيى بن العمادي(ت:٩٨٩هـ/١٥٨١م) فهو وإن وصف بأنه "معلم الأطفال"، إلا أنه كان مقرئاً مجوداً، اجتمعت فيه صفات كثيرة، فذكره نجم الدين الغزي بأنه من الصالحين، وممن يصومون رجب، وشعبان مع رمضان، وكان "يجود القرآن، ويزور مقابر الصالحين ويعتكف بعد صلاة الجمعة في الجامع الأموي". وهو مع ذلك، له مؤهلات علمية؛ إذ حفظ القرآن والشاطبية(٩٧) والرائية(٩٨)، ورسالة أبي زيد(٩٩)، ولكل تلك المؤهلات وصفه الغزي بالقول: "**وكان من أولياء ا الصالحين ممن تطوى له الأرض وكان في غاية الصحة**"(١٠٠).

ونجد من المؤدبين خطيباً في جامع منجك(١٠١). وهو إلى جانب عمله في الخطابة "...كان عالماً، صالحاً، مقرئاً، مجوداً، مجيداً، وكان يؤدب الأطفال..."(١٠٢) وهذا ما تقدمه سيرة موسى بن أحمد القابوني (ت:٩٨٨هـ/١٥٨٠م)(١٠٣). والحال ذاته في سيرة مؤدب الأطفال أحمد بن حسن البقاعي (ت:٩٩٥هـ/١٥٨٦م) إذ مارس نشاطه مؤدباً للأطفال إلى جانب عمله خطيباً

الظاهر بيبرس. وهي قسمان: القبلي ويستخدم اليوم مسجدا، أما الشمالي ففيه المتحف الحربي، وأما الجزء الشرقي وهو المدرسة ففيه متحف للحرف والمهن اليدوية. انظر: عبد القادر الريحاوي، **روائع التراث** في **دمشق،** دار التكوين دمشق، ٢٠٠٥م، ص ١٢٤؛ إيبش والشهابي، معالم دمشق، ص٩٩.

(٩٦) المحبي، خلاصة، ج١ ص٣٦.

(٩٧) متن الشاطبية المسمى حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع هي منظومة للإمام القاسم بن فيرة بن خلف الشاطبي الرعيني ت: ٥٨٩هـ/١١٩٣م، واسمها الأصلي هو "حرز الأماني ووجه التهاني" ولكنها اشتهرت بالشاطبية نسبة لناظمها. بلغ عدد أبياتها ١١٧٣ بيتاً، نظم فيها الشاطبي القراءات السبع المتواترة عن الأئمة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وهي من أوائل القصائد التي نظمت في علم القراءات ولها عدة شروح.انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٦٤٦.

(٩٨) وهي قصيدة طويلة للشاطبي ومع أنها عرفت بالرائية إلا أن اسمها هو "عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد"، وهي في بيان رسم المصحف، ولها عدة شروح أشهرها شرح برهان الدين إبراهيم الجعبري ت:٧٣٢هـ/١٣٣١م. انظر: حاجي خليفة، كشف، ج٢، ص١١٥٩.

(٩٩) يعد كتاب "الرسالة الفقهية" للشيخ أبي محمد عبد ا بن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير (ت٣٨٦ هـ/٩٩٦م)، من أشهر وأنفس ذخائر التراث المالكي، بل المصدر الثالث في المذهب بعد الموطأ والمدونة، والكتيب على صغر حجمه واختصاره، حوى بين دفتيه أربعة آلاف مسألة. طبع الكتاب ومعه غرر المقالة في شرح غريب الرسالة لأبي عبد ا محمد بن منصور المغراوي، دار الغرب الإسلامي، تحقيق الهادي ومحمد أبو الأجفان، ط١، بيروت، ١٩٨٦م. وعن أبي زيد وأهمية رسالته انظر دراسة: محمد مهدي المسعودي، العلماء والمعلمون بالمجتمع المغرب في القرون الإسلامية الأولى، منشورات حوليات الجامعة التونسية، سلسلة علوم التربية، العدد الرابع، نوفمبر ١٩٩٣م، ص١٨٧-١٨٩.

(١٠٠) الغزي، الكواكب، ج٣، ص.٢٢٠.

(١٠١) يقع في حي الميدان الوسطاني، بناه الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سيف الدين منجك الكبير سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٤٤٤؛ العلبي، خطط، ص٣٥٦.

(١٠٢) الغزي، الكواكب، ج٣، ص٢١٦.

(١٠٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٦.

بالتابتية[١٠٤] بمحلة باب السريجة[١٠٥]، خارج دمشق[١٠٦]".

أما أحمد بن عبد القادر ابن الشيخ الإمام شهاب الدين ابن التينة الدمشقي الشافعي (ت:٩٧٩هـ/١٥٧١م) مؤدب الأطفال بمسجد المجاهدية[١٠٧] داخل باب الفراديس، فعرف عنه أنه كان عالماً فاضلاً عابداً زاهداً، وهو وإن قرأ الفقه على شيوخ عصره، إلا أنه عرف بين مجتمعه بأن " له فراسة فيمن يقرأ عنده من الأطفال، وصدقت فراسته في كثير منهم.. وكان يختم القرآن في كل جمعة ويقوم الليل.."[١٠٨].

وتقدم سيرة أبي القاسم بن محمد المغربي السوسي المالكي نزيل دمشق ومفتي المالكية (ت:١٠٣٨هـ/١٦٢٨م). ما يشير إلى الدور الاجتماعي لبعض مؤدبي الأطفال في المجتمع، من تجاوز لدورهم في تعليم الأطفال إلى دور عام من خلال منزلته العلمية في العلم؛ إذ وصف بأنه "وحيد عصره في الفتيا بعد مشايخه العظام بدمشق"، وهو ما جعله مهابا عند "القضاة والحكام" لأن "**غالب أهل دمشق يرجعون إليه في المشاورة للأمور**"، وهو لا يقف عن تدريس الأطفال أو ممارسة دور وسيط بين العامة والحكام بل تجاوز ذلك إلى التدريس في أهم مساجد دمشق "وحدث بالجامع الأموي فحضره خلق كثير وأخذ عليه جماعة وانتفعوا به.."[١٠٩].

وممن قدموا من المغرب أيضا، وعملوا في التأديب، الشيخ حسين بن قاسم العتيقي المغربي، الذي رحل إلى دمشق وبلاد الروم العام ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م ، وعرف بـ"الأديب الشاعر"، وأقام "..بها مقدار نصف سنة.."[١١٠]. وفي ثقافته ما يشير إلى اطلاعه على علوم العربية والتاريخ؛ إذ وصف بأنه "يعرف العربية...ويذكر أخبار علماء الغرب من أقرانه ومن قابلهم ويستحضر وقائعهم.." وبعد نصف سنة، خرج حاجا و"قطن بمدينة العلا في طريق المدينة من الشام وأحبه أهلها وأقبلوا عليه وجعلوه لهم إماما وخطيبا ومعلما لأطفالهم ومفتيا لهم على مذهب مالك لأنهم مالكيون.."[١١١].

ومع أن الغالبية من المؤدبين ومعلمي الصبيان كانوا على درجة من المعرفة والثقافة، إلا أن ذلك لم يحل دون وجود بعض من لم تتوافر بهم حصيلة من المعارف العامة أو علو منزلة في العلم، وذلك ما نجده في سيرة صلاح الدين الكتبي (ت:٩٨٠هـ/١٥٧٢م) الذي لم تكن لديه الكثير

---

(١٠٤) هي المدرسة الاتابكية أوقفتها تركان خاتون أخت أرسلان أتابك وزوج الأشرف موسى وابنة الملك عزالدين مسعود بن زنكي، سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وتقع المدرسة شرق دار الحديث الأشرفية بالصالحية وفي جادة المدارس مقابل إعدادية محمد البزم اليوم. انظر النعيمي، الدارس ج١، ص١٢٩؛ العلبي، خطط، ٩٧.

(١٠٥) أحد أحياء دمشق القديمة، يقع إلى الشرق من جامع زيد بن ثابت. العلبي، خطط، ص٤٣٤.

(١٠٦) الغزي، الكواكب، ج٣، ص١٧٥

(١٠٧) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٥.

(١٠٨) المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٩.

(١٠٩) المحبي، خلاصة، ج١، ١٤٥.

(١١٠) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٢-١٠٣.

(١١١) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٢-١٠٣.

من المؤهلات العلمية لتأديب الأطفال، إلا ما عرف عنه من الصلاح والتهجد(١١٢)، وقد أدب الأطفال بالغزالية(١١٣).

ويتكرر المستوى الثقافي البسيط في سيرة محمد بن شمس الدين الظني الشافعي (ت: ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) الذي عمل مؤدبا في آخر عمره، مع ما يلزم تلك المهمة من صفات العلم والورع والفضل، فقد وصف بأنه "الشيخ العالم الصالح... أحد الفضلاء المعتقدين بدمشق وكان يؤدب الأطفال، وفي آخر عمره استقر مؤدبا لهم بالقيمرية الجوانية(١١٤)، وأعطي مشيخة القراء بالشامية البرانية(١١٥).

ب- مؤدبون متصوفة ووعاظ

ارتبط بعض المؤدبين بالطرائق الصوفية، وفي حالات محددة نجد بعض من سيرهم تحاط بنوع من الكرامات، ومنهم من مارس الوعظ في مساجد معروفة، كما هي الحال في عبد اللطيف بن زين الدين الكيال (ت:٩٨٢هـ/١٥٧٤م) الذي انتقل من عمله مؤدبا للأطفال، ليصبح واعظاً بالجامع الأموي(١١٦).

وعمل علي ابن الخباز البغدادي العاتكي الدمشقي (ت:٩١١هـ/١٥٠٥م) مؤدبا، وكان يجتمع عليه في كل جمعة جماعة، "يذكرون ا تعالى بالقرب من ضريح سيدي يحيى بالجامع الأموي برفع الصوت.."(١١٧). ومن المؤدبين الوعاظ، عبد الرحمن بن إبراهيم الدنابي الحنبلي(ت:٩١٥هـ/١٥٠٩م) الذي وصفه الغزي بـ "الإمام القدوة الزاهد" وهو حافظ للقرآن العظيم، وقرأ في الفقه و"...كان يقريء الأطفال في مكتب مسجد ناصر الدين غربي مدرسة أبي عمر، وكان يقرأ البخاري في البيوت والمساجد وجامع الحنابلة بالسفح، وكان إذا ختم البخاري في الجامع المذكور يحضر عنده خلائق... (١١٨)

ومن المتصلين بالطرائق الصوفية الشيخ موسى شرف الدين البيت لبدي الصالحي الحنبلي

(١١٢) الغزي، الكواكب، ج٣، ص١٦٠

(١١٣) ذكرها النعيمي كمدرسة من المدارس الشافعية، وهي في الأصل زاوية تقع في الجهة الشمالية الغربية شمالي مشهد عثمان المعروف الآن بمشهد النائب من الجامع الأموي. وهي منسوبة إلى الشيخ نصر المقدسي وتنسب إلى الإمام الغزالي لكون الغزالي لما دخل دمشق قصد الخانقاه السميساطية ليدخل إليها فمنعه الصوفية من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها وأقام بالزاوية الغزالية بالجامع الأموي إلى أن علم الصوفية مكانه وعرفت منزلته فحضروا بأسرهم إليه واعتذروا له ثم أدخلوه الخانقاه السميساطية فعرفت الزاوية الغزالية، وقد درس بها كبار علماء دمشق ومن نزل بها أمثال العز بن عبد السلام أبي النصر الطوسي. النعيمي، الدارس، ج١ ص ٤١٣؛ كرد علي، خطط، ج٦، ص١٣٩؛ العلبي، خطط ص١٥٠.

(١١٤) عرفت سابقا هامش ٢٧.

(١١٥) الغزي، الكواكب، ج٢، ص٧١ والمدرسة عرفت سابقا هامش رقم ٢٨.

(١١٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٢

(١١٧) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٢.

(١١٨) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤١.

(٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م) مؤدب الأطفال بالمدرسة بالشاذبكية[١١٩] بمحلة القنوات خارج دمشق"[١٢٠]. ومحمد بن علي بن الحسن ابن تاج الدين الكيلاني التروسي الحلبي الشافعي الصوفي(ت:٩٧٠هـ/١٥٦٢م) الذي علم الأطفال قراءة القرآن والكتابة و"هو على سمت الصالحين وكان يستحضر شيئاً من طب الأبدان كما يستحضر من طب القلوب"[١٢١].

وتعبر سيرة عبد الغني الجمحي العجلوني الإربدي (ت:٩٤٦هـ/١٥٣٩م) عن مؤدب عد من الأولياء وأهل الشفاعة عند الحكام، وهو القادم إلى دمشق من من جنوبي الشام سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٨م، وفيها "أقام الجمحي ثلاث سنوات، يقرئ الأطفال "وأقرأهم بالتوريزية بقبر عاتكة"[١٢٢]. وفي سيرته أنه اشتهر بمسعاه لدى والي دمشق سنان باشا الطواشي، الذي حكم بين عامي (٩٥١-٩٥٦هـ/١٥٤٥-١٥٥٠م)[١٢٣]، بالشفاعة في حريم من أهل منطقته جراء تعسف الأمير طرباي الحارثي بها[١٢٤].

ويلحظ في سيرة بعض المؤدبين الوافدين إلى دمشق، البساطة والنزوع للتقشف أحيانا، ومثال ذلك سيرة علي الشيخ نور الدين المصري الشافعي، الشهير بابن المذاقف (ت: ٩٢٠هـ/١٥١٤م) الذي وصف بأنه "كان يؤدب الأطفال ويصرف جميع ما يحصل من قبلهم في جميع الخير قانعاً بالقميص والعباءة، وكان حسن الصوت في التلاوة سليم الصدر معتقداً في القلوب.."[١٢٥].

ومن مصر أيضا، جاء أبو بكر الشيخ تقي الدين الأبياري المصري (ت:٩٤٤هـ/١٥٣٧م) ونزل دمشق وعرف بأنه صوفي، تميز عن أقرانه من المؤدبين، بأنه لم يكن يتقاضى أجراً و"كان فقيهاً زاهداً عابداً، وكان مع ذلك يعرف الفقه والحديث والقراءات والنحو والأصول والهيئة...وما قرأ عليه أحد إلا انتفع به"[١٢٦].

وتختلط في سيرة الشيخ عبد الجواد المصري (ت:١٠١٧هـ/١٦٠٨م) عدة صور، فهو في الأولى مؤدب أطفال، وفي الثانية أحد المجاذيب الغالب عليهم الوسواس، وفي الثالثة شيخ كف

(١١٩) عرفت سابقا، هامش ٢٩.

(١٢٠) الغزي، الكواكب، ج٢، ص٢٥٣.

(١٢١) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٠.

(١٢٢) والتربة التوريزية وجامعا أنشأها الأمير غرس الدين خليل التوريزي الدستاري صاحب الحجاب بدمشق سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م، وتظم التربة التورزية بحي السويقة قبر السيدة عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. الغزي، الكواكب، ج٢، ص ١٧٠؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٨٨؛ العلبي، خطط، ص٣١٩.

(١٢٣) المقار، محمد بن جمعة (ت:بعد ١١٥٦هـ/١١٤٣م)، **الباشات والقضاة**، نشرة صلاح الدين المنجد، في: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق ١٩٤٩م، ص١٣-١٤.

(١٢٤) طرباي بن علي الحارثي، زعيم وأمير أسرة طرباي الحارثية، وهي أسرة م استقرت في العهد المملوكي في منطقة جنين وصفد، واعترض الأمير أحمد العثمانيين عن دخولهم بلاد الشام وتولى حكم سنجق اللجون في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وتوفي عام ١٠١٠هـ/١٦٠٢م وتولى الإمارة مكانه ابنه أحمد. انظر: المحبي، خلاصة،ج١، ص٢٢١.

(١٢٥) الغزي، الكواكب، ج١، ص ٢٨٢.

(١٢٦) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٢.

بصره في آخر العمر، يقول المحبي:"عبد الجواد المصري الصالح المجذوب نزيل دمشق **كان يعلم الأطفال بالبقاع وغيره من أعمال دمشق،** ثم قطن دمشق وقرأ بها وحفظ بعض المسائل، ثم غلب عليه الوسواس حتى وصل إلى أمور عجيبة، وكان يغلب عليه الجذب ويكره التسمية بعبد الجواد ...وكف بصره في آخر الأمر"(١٢٧).

وفي سيرة علي بن سعد بن علوان المكتبي المعروف بالأسود الفقيه الشافعي الدمشقي(١٠٧٤هـ/١٦٦٣م) نجده يجعل تعليم الصبيان قبل الدروس العلمية، فالشيخ الأسود الذي عرف عنه أنه كان مؤدباً شديد التصلب في رأيه، ويحب العزلة "كان يقرئ الأطفال في مكتب المرادية(١٢٨)، فإذا صرفهم عقد حلقة تدريس بحجرة له في جامع المرادية يقرئ بها الطلبة الفقه والنحو والتجويد..." وليس هذا سببا لشهرته بين أقرانه، فهو وإن وصف بأنه "يأكل من كسب يمينه" إلا أنه تميز في طبيعة العمل الذي قام به، فقد عمل ناسخا للكتب "كتب كتباً كثيرة بخطه منها: الجامع الصغير للسيوطي(١٢٩)، كتب منه إحدى وعشرين نسخة، واشتهر فيها وسبب ذلك أنه كان اشترى نسخة من بعض الأفاضل وقابلها وصححها وكتب على ألفاظها المشكلة مقالات شارحه، واعتنى بها ولازمها حتى حفظ الكتاب عن ظهر قلب ومحصل القول فيه إنه كان بركة من بركات عصره"(١٣٠).

ج- تقييم المعلمين والمؤدبين

لا تفرد المصادر من وثائق وكتب تراجم، تفاصيل عن درجة انتفاع الطلبة من المؤدبين، وهي وإن أوضحت أحيانا نُبذ قليلة عن المسار الثقافي للسير، الذي أوصل بعضها لممارسة وظيفة تعليم الصبيان، فإن التقييم العلمي يظل نادر التحقق، مع أن المصادر تشير إلى ذلك باخبار مقتضبة أحيانا، كما أنها في بعض التراجم تشير إلى دورها ومكانتها الاجتماعية في المجتمع الدمشقي.

ففي سيرة الفقيه الشافعي علي بن سعد بن علوان المكتبي المعروف بالأسود (١٠٧٤هـ/١٦٦٣م) نجد من يجعل تعليم الصبيان مقدمة للدروس العلمية، فما إن ينتهي من تعليمهم، حتى كان يعقد حلقة للتدريس "يقرئ بها الطلبة الفقه والنحو والتجويد..."، ولكن هذا لم يكن سبباً لشهرته بين أقرانه، فهو وإن وصف بأنه "يأكل من كسب يمينه" إلا أنه تميز حسب رأي المحبي بأنه كان"شديد التصلب في رأيه"(١٣١).

فمنهم من كان ديناً خيراً كثير التلاوة للقرآن...**مثابراً على إفادة الطلاب**...وانتفع به كثيرون

(١٢٧) المحبي خلاصة ج٢، ص ٣٠٣.

(١٢٨) عرفت سابقا، هامش رقم ٣٨.

(١٢٩) لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ/١٥٠٥م)، **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.

(١٣٠) المحبي، خلاصة، ج٣، ص ١٠.

(١٣١) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٠.

في فنون كثيرة منها العربية والمنطق والحساب والفرائض والفقه والقراءات والتفسير"[١٣٢]. وهناك من كان مؤدبا " فصيحاً، وله مسلك في الوعظ حسن.."[١٣٣] ووصف حسن الشيخ صالح المصري(ت:٩٢٢هـ/١٥١٦م) بأنه فقيه لتأديب الأطفال بالمدرسة الفروخشاهية[١٣٤] ويبدو أنه كان يلقي دروسا في الأدب على الكبار فقيل عنه "أدب جماعة من أكابرها وأعيانها...وقنع بجهة التعليم وكان أمة في ذلك مواظباً دربا مباركاً فيه متبركاً به.."[١٣٥].

أما عن كفية تولي المؤدبين وظائفهم، فمنهم من تحول عن وظيفة ما إلى تأديب الأطفال، ومنهم من جمع بينها وبين وظائف أخرى كان يباشرها في أوقاف بعض المساجد، وهناك من تحول عن حرفة ما، وصار مؤدبا؛ إذ لم يتعارض عمل يونس بن محمد بن شعبان الشيخ العلاّمة شرف الدين ابن سلطان الحرافيش بدمشق(ت:٩٢٩هـ/١٥٢٢م) شاهدا في باب المحكمة ليصبح مؤدبا فذكر عنه أنه".. من المتغفلين في المجالس ولكن حصل به النفع في آخر عمره بملازمة المشهد الشرقي بالجامع الأموي لإقراء **صغار الطلبة** وكان في ابتداء أمره شاهداً..."[١٣٦].

وتسجل شخصية أحمد بن التينة حالة منفردة بين السير التي تم رصدها؛ إذ ورث وظيفة تأديب الأطفال عن والده الشيخ عبد القادر (ت:٩٣٦هـ/١٥٣٩م) الذي كان يؤدب الأطفال في مسجد الشيخ رسلان[١٣٧].

وهناك قسم من المؤدبين ممن كانوا نزلاء في دمشق؛ إذ استطاع بعضهم أن يستمروا بنشاطهم في مدراس المدينة إلى جانب تأديب الأطفال، كما هو حال أحمد البقاعي الشافعي (ت:٩٤٠هـ/١٥٣٣م) الذي كان يقرئ الأطفال في مكتب المدرسة الحاجبية بحي الصالحية[١٣٨].

ويبدو أن تعليم الأطفال كان يحتاج للصحة السليمة، إذ أن بعظم ترك تعليم الأطفال لما مرض، واعتلت صحته، وهذا مؤشر على أن تعليم الأطفال يحتاج إلى حضور ويقظة كانت تستلزمها طبيعة المهمة، فيذكر الغزي أن الشيخ محمد الكيلاني بعد" أن علت سنه ونحف بدنه فترك تأديب الأطفال.."[١٣٩].

خلاصة وتقييم

(١٣٢) الغزي، الكواكب، ج١، ص ١٠٦.
(١٣٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٥..
(١٣٤) أوقفتها الخاتون زوجة شاهنشاه أيوب أخي صلاح الدين الأيوبي المتوفاة سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م وموقعها شرقي قصر الضيافة بخمسين مترا بالضبط، ويذكر أكرم العلبي أنها جددت وتحولت إلى مصلى صغير تعلوه قبة شاهقة. انظر: محمد كرد علي، خطط. ج٦،ص٩٣؛ العلبي، خطط، ص٢٠٦.
(١٣٥) الغزي، الكواكب، ج١، ص ١٨٢.
(١٣٦) المصدرنفسه، ج١، ص ٣٢٠.
(١٣٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٧٥. تم التأكد من سنوات الوفاة كما أشار إليها الغزي بالرغم مما توحي به من اضطراب.
(١٣٨) المصدر نفسه، ج٣، ص١١٩.
(١٣٩) الغزي، الكواكب، ج٣، ص ٦٦.

بينت الدراسة أن تدريس الصبيان وتأدبهم انتشر في مختلف أحياء دمشق داخل السور وخارجه وفي الريف، كأحد أوجه أشكال الثقافة والمعرفة المادية والبقاء الاجتماعي في بيئة حضرية تمتد في ذلك إلى العصور الإسلامية الوسيطة(١٤٠)؛ إذ لم ينفصل عمل المؤدبين عن نشاطهم التقليدي في الحرف أو الوظائف المختلفة سواء أدينية كانت أو تعليمية.

وبدا أن غالبية السير التي نشطت في تلك المهمة لم تستطع أن تندرج أو تتقدم إلى مصاف الأعيان من العلماء ورجال الدين الذين تناولتهم الدراسات بعدهم فئة مثلت مجموعة ثقافية مستقلة ومتداخلة العلاقات بين شرائح المجتمع والسلطة، ومن ثَم ظلت تلك السير بعيدة عن الوظائف الدينية العليا(١٤١)؛ إذ بقي المؤدبون أقرب للعامة، ولم يشكلوا مجموعة خاصة بهم ذات علاقات متشابكة مع اقرأنهم من فئة المدرسين، في المجالس العلمية الخاصة أو العامة أو في مدارس دمشق المختلفة، التي ظلت الوظائف التدريسية والدينية العليا فيها كالإفتاء والقضاء والخطابة يتناوب عليها أبناء العائلات أو المتقدمين بالعلم.

وبدا جليا عدم دخول المؤدبين والمقرئين ومعلمي الصبيان، إلا في حالات قليلة، في علاقات مع السلطة وممثليها على عكس فئة العلماء، وظهر واضحا أن أجور المؤدبين لم تكن تكفي تكاليف معيشة المؤدبين، مما ألجأهم إلى وظائف تعليمية أو وعظية أو خدمية مختلفة.

وظهر من خلال المصادر أن وظائف مكاتب مؤدبي الأطفال كانت تتعدى واجبها التربوي إلى تقديم خدمات ذات صبغة اجتماعية للأحياء، التي انتشرت فيها مثل عقد "الأنكحة وكتابة الصكوك"(١٤٢)، وفي صورة مغايرة يظهر أن بعض المؤدبين كانوا ميسوري الحال ولم يتقاضوا أجوراً من ذوي الأطفال، وأنهم كانوا يقدمون الطعام لهم(١٤٣). ويبدو أن بعض الشيوخ استطاع أن يجمع إلى جانب التعليم أكثر من وظيفة علمية، بحسب ما تشير السجلات الشرعية(١٤٤)، وبدا جليا التفاوت في مستوى أجور المؤدبين.

ويبدو أن مكاتب تعليم الأطفال التي انتشرت في مختلف أحياء المدنية داخل السور وخارجه، أسهمت في تأهيل الطلبة للدراسة في المرحلة التالية، وهي التعلم في المدارس ودور العلم

(١٤٠) عن المعرفة والممارسة الاجتماعية في دمشق في العصور الوسطى، انظر: Chamberlain, Michael. Knowledge and Social Practice in Medieval Damascus,1190-1350, Cambridge University Press. (1994).p.108

(١٤١) هناك العديد من الدراسات التي ركزت على دور العلماء والأعيان كمجموعة مؤثرة في المدينة ومنها: ليندا شليشر، بعض مظاهر أحوال الأعيان بدمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، في: المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، ١٩٧٨. وبيتر غران، الأسس الاجتماعية للثقافة في دمشق من ١٧٨٠-١٨٥٠م، في: المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، ١٩٧٨ وغيرها من دراسات عبد الغني عماد ووجيه كوثراني وخالد زيادة وآخرين.

(١٤٢) المرادي، سلك، ج٢، ص٢٠.

(١٤٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٤.

(١٤٤) انظر: سجل محكمة شرعية ١٣، حجة ١٢٣، ص ٧٥، ١٥ ذو القعدة، ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م "تعيين علي بن محمد بوظيفة معيد الدرس في المدرسة الفروخشاهية مع وظيفة مقرئ الأولاد في مكتبه.." وانظر: سجل ١٧، حجه ٢٣٤، ص ١٢٣، ١٣ شوال ١٠٩٩هـ/١٦٩٧م.

المتخصصة وبخاصة دور القرآن والحديث، وتبين أن مؤدبي الأطفال تمتعوا بثقافة متفاوتة المستوى، وأن ثقافتهم كانت متنوعة.

ولم تكن موضوعات الدراسة محددة في مسار معرفي واحد، وإنما ترك على ما يبدو لكل شيخ أن يجتهد في موضوعات الدروس التي ظلت تدور في باب المعرفة الأولية من قراءة وحساب وخط وبعض رسائل النحو وتهجئة الحروف، وتبين أن مكاتب تأديب الأطفال افترقت عن المدارس في أن المصادر لا تذكر شيئا عن عطلتها[١٤٥] أو تحدد على نحو دقيق السن المقرر للأطفال لكي يلتحقوا بها.

ويتضح من سير المؤدبين أن هناك تمييزاً بين من يقرئ الطلبة فقط[١٤٦]، ومن يوصف بأنه مؤدب[١٤٧]، وكشفت بعض السير التي تم رصدها، بأن شخصية المؤدب كانت أكثر ثقافة من الذين تولوا وظيفية "مقرئ للصبيان"، كما أن صفة المؤدب اقترنت بصفات بدت وكأنها مؤهلات لازمة كالمعرفة العلمية والصلاح والتقوى، ومنهم من كان يمارس وظيفية التأديب إلى جانب وظائف دينية أو تعليمية أخرى[١٤٨] في حين بدت مهمة تعليم الأطفال القراءة سبب رزق لبعض التراجم[١٤٩].

ومن خلال دراسة نماذج متعددة من تراجم المؤدبين، لوحظ أن نسبة كبيرة منها وفدت إلى دمشق، إما من مصر أو المغرب العربي، أو حلب أو من ريف دمشق ومدن أخرى، ولعل تواضع المستوى الثقافي وبساطته كان مرده للبيئات الثقافية التي انحدر منها المؤدبون، كما اتصل قسم منهم بطرائق الصوفية ومارسوا الوعظ بين الناس.

(١٤٥) كانت المدارس في العصر المملوكي تعطل خلال شهري شعبان ورمضان وايام الأعياد، ويشير ابن كنّان إلى ذلك بقوله: "وفي آخره – رمضان ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م- ختم المدرسون الدروس بالجامع لقرب العيد." الحوداث، ص٢٤٣، وفي موضع آخر يقول: "..وفيه –شعبان ١١٣٠هـ/١٧١٧م- ختم المدرسون أرباب الدروس دروسهم.." الحوادث، ص٢٨٥. وكانت بعض المدارس تشترط كتب وقفها يوم عطلتها، كما هو حال المدرسة العمرية التي كانت تتوقف عن التدريس يوم الجمعة. انظر: أحمد حطيط، ***التعليم بدمشق في زمن المماليك***، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، العدد ٥٤، ٢٠١١. ص ١١.

(١٤٦) الغزي، الكواكب، ج٢، ص١١٨

(١٤٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٢

(١٤٨) المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٠

(١٤٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣٥

Remarks on The Education of Boys in Damascus During Ottoman Rule

(922-1337A.H/1516 – 1918)

Mohannad al- Mubaidin *

ABSTRACT

This study focuses on the education of boys during Ottoman Rule in Damascus. It identifies the offices used for this purpose. It also includes biographical accounts of the educators, who tutored boys. The cultural formation of the education, their financial resources and the methodology they used in their teaching are also examined in this study.

KEYWORDS: Education of Boys, Damascus, Ottoman Rule.

---

* Faculty of Arts, History Department, University of Jordan.
Received on 27/6/2011 and accepted for publication on 10/5/2012.